

مشكلة التأسيس في فينومينولوجيا إدموند هسرل كلاوس هالد

ترجمة أ.د. نادية بونفقة*

الرقم التعريفي للمقال: DOI: 10.33705/1111-000.011.008

ملخص:

من أجل الوصول إلى نموذج أعلى لعالم يمكن للإنسان أن يشعر فيه براحته وأن "يعيش" فيه بكامل قواه العقلية، يدرج هسرل في فلسفته الأخيرة مفهوما جديدا وأساسيا في تاريخ الفلسفة الأوروبية بوجه خاص والفلسفة الإنسانية بوجه عام، ألا وهو عالم الحياة الذي يعني به أساسا عالم ما قبل العلم وما قبل التقنية، والذي انطلق منه مع ذلك كل علم وكل حضارة.

إلا أن تجاهل الإنسان لهذا العالم قد أوقعه حسب هسرل في أزمة نفسية تاريخية حادة لا يمكن الخروج منها إلا بالعودة إلى المفاهيم والمبادئ الأولى لهذا العالم وتأسيس كل شيء على ضوئها من جديد.

انطلاقا من هذه الإشكالية يهتم هسرل، خاصة في كتابه الأخير أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية بتجديد الفلسفة بصفاتها علما وأساسا لكل عمل علمي عموما، ومن هنا بالضبط يطرح إشكالية التأسيس التي يتناولها النص الآتي.

الكلمات المفتاحية:

التأسيس، عالم الحياة، الإدراك، الظاهرة النفسية، النقد، منهج الرد الماهوي، القصدية الموضوعية، التحليل التأسيسي، مجالات الوجود، الماهية، الشعور، الموجود في ذاته.

النص

إن الفينومينولوجيا التي أسسها هسرل قد عملت على إثراء الفلسفة وكذا مجموعة من العلوم في الثلث الأول من قرننا وهذا بكيفية متنوعة، كما أثرت عليها جزئيا بكيفية حاسمة.

* جامعة الجزائر I، الجزائر، البريد الإلكتروني: nbounafaka@hotmail.com

إنّ كتاب هسرل الأخير "أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندننتالية" لعام 1936، الذي كتبه سنتين قبل وفاته (والذي صار يعرف فيما بعد بـ"الأزمة")، لا زال يملك تأثيراً متجدداً على الدوام وممتداً إلى الحاضر، فقد ارتبط أساساً بإدخال مفهوم عالم الحياة.

إن الصدمة الكارثية جراء الظروف البيئية، وكذا التذمر من مجتمع منظم وموجه عقلياً ولكن أكثر عنفاً على الدوام، هذا وغيره من العوامل قد أدى إلى ظهور تأملات عديدة تبحث في يومنا هذا عن النموذج الأعلى لعالم يمكن للإنسان أن يشعر فيه براحة وأن "يعيش" فيه بكامل قواه العقلية. هكذا طفا شعار هسرل "عالم الحياة" من جديد وبشكل متزايد في الوقت الحاضر في المجالس العلمية والنقاشات العامة. من المؤكد أن أغلب الإسهامات في هذا الموضوع تقوم على أرضية أقل تردداً مما كانت عليه سابقاً مقارنة بالسياقات الفكرية التي رفع هسرل ضمنها كلمة "عالم الحياة" إلى مفهوم فلسفي أساسي [...].

إن تأمل هسرل لعالم الحياة يتضمن نقداً جذرياً لروح العلم المعاصر. إلا أن الشيء الملاحظ هو أن هذا النقد ليس معادياً في جوهره للعلم. على العكس يتعلق الأمر بالنسبة إلى هسرل بتجديد الفلسفة بصفاتها علماً وأساساً لكل عمل علمي عموماً. بهذا من الممكن أن يساعدنا تأمله لعالم الحياة على تفادي هذا التذمر المتزايد من العلم ومن الحضارة والذي يشهد انتشاراً متواصلاً في أيامنا هذه، خاصة في أوساط المذاهب الرومانسية التي تتبناها الحركات الشبانية التي تدعو للعودة إلى عالم قبل-علمي وقبل-تقني، أي إلى عالم سليم.

من خلال هذا التذمر يتجلى من جديد التوتر بين "الثقافتين المميزتين" لعصرنا واللتين تدور حولهما نقاشات تعود إلى الستينات، وبالضبط إثر ظهور أطروحات الروائي والعالم الإنجليزي شارل سناو. يبدو الوجود المعاصر وكأنه منشطر إلى جزأين:

جزء الحياة المجردة من الروح في عالم مطبوع بطابع علمي طبيعي. تقني عقلي مع مؤسساته، وجزء الوجود الممتلئ في عالم تاريخي. شخصي متطور بكل شهاداته الثقافية.

إن هذا التمزق ينعكس أيضاً في تردد الفلسفة الحاضرة بين إرث حبلين ثقافيين.

تقف محاولات متنوعة في وجه التفكير الموجّه توجيهاً تحليلياً - علمياً، ذي المصدر التجريبي-الوضعي المعاصر، بغية ربط المحاولات الترنسندننتالية الفلسفية، الديالكتية الوجودية الفلسفية أو التأويلية بالتقليد الأوروبي القديم.

يمتلك تفكير هسرل قابلية للانجذاب من الجانبين، الشيء الذي يجعله مؤهلاً تأهيلاً مسبقاً للاضطلاع بدور الوسيط بين "الثقافتين". يعتبر هسرل من خلال تكوينه الرياضي ضمن الوضعية العقلية للقرن 19

المنصرم قريبا من التقليديين المذكورين في البداية فكما هو الحال في المذهب الوضعي في زمانه يتزاج في تفكير هسرل البحث عن "مفهوم طبيعي للحياة"، والذي تُوج لديه بنظرية عالم الحياة التي تنتمي إلى فلسفته الأخيرة، مع محاولة تأسيس المعرفة. لذلك فليس من باب الصدفة أن تتكاثر في وقتنا المعاصر المحاولات من أجل إقامة جسور بين التفكير التحليلي المسيطر في المجال الأنجلو- أمريكي وفينومينولوجيا هسرل. غير أنه يمكننا أن نتأمل في الجانب الآخر السياق الترنسندنتالي الفلسفي للتحليلات الأخيرة المتعلقة بعالم الحياة أيضا كحصن ضد الخسارة التاريخية أو على الأقل ضد الاستعمال الطائش للتقليد الفلسفي الكلاسيكي الذي يمكن ملاحظته في أجزاء الفلسفة الموجهة توجيها تحليليا- علميا نظريا. إن مما يتماشى مع هذا الجانب من العمل الكلي لهسرل كون إشكالية عالم الحياة توجد في ترابط داخلي مع التفكير الوجودي الفلسفي التأويلي الذي تطور لدى هيدجر، سارتر، جادامار وآخرين في حوار دائم مع هسرل.

وبالمثل مما ينتمي إلى هذا السياق كون مفهوم عالم الحياة يكتسب مجددا دلالة خاصة في الفلسفة الاجتماعية لهايرماس التي تنتمي إلى تقليد المذهب الهيجلي اليساري [...].

صحيح أنّ الصورة الأولى التي برزت بها الفينومينولوجيا إلى الوجود، هي رغبتها في أن تكون منهاجا فلسفيا يسعى من جديد وبشكل جذري إلى التخلّص من الأحكام المسبقة. غير أن الفينومينولوجيا لم تعد عند هسرل، ولا عند كبار الفينومينولوجيين الآخرين - شيلر هيدجر، سارتر، مارلو بونتي، حتى تقتصر على ذكر أهمهم- مجرد منهج، بل إنها صارت فلسفة، أي - حسب التعريف القديم لأرسطو- تساؤلا عن كل ما هو موجود بالنظر إلى وجوده. تتخذ الفينومينولوجيا بصفقتها فلسفة، لدى هسرل، شكل تحليل تأسيسي، يجعل "الوجود" يكتسب طابع موضوعية مؤسّسة في الشعور [...]. إن كل التحليلات، إذا تناولناها في أبسط صيغة، تفيدنا في تأسيس التفسير المتعلق بالصفة والكيفية التي يظهر بها العالم للإنسان؛ إن الموضوع الأساسي للبحث الفينومينولوجي التأسيسي هو العالم بصفته تجليا، بصفته "ظاهرة". إن تطور فكر هسرل قد قاده في السنوات الأخيرة إلى تحديد العالم المتجلي باعتباره عالم حياة؛ إن "عالم الحياة" ليس شيئا آخر سوى "العالم" الذي تناوله هسرل سابقا دائما في تفكيره الخاص بالتأسيس- مع إثراء هام للمعنى بعد ذلك بكل تأكيد.

في الحقيقة يعطي هسرل بواسطة تحليلاته التأسيسية الدليل الملموس على الموقف المثالي الذي تسعى إليه فينومينولوجيته. ذلك أنه في الموقف الطبيعي، وهو الموقف الأول للإنسان من العالم، قبل تحوّل إلى الفلسفة الفينومينولوجية، يكون العالم مع الأشياء الموجودة فيه كشيء موضوعي، أي كموجود في ذاته، أو كشيء قائم بذاته دون أي ارتباط بالشعور. إلا أن إعطاء العالم للشعور الإنساني، أو بعبارة أخرى "ظهوره" "الذاتي-النسبي" سيتميّز عن وجوده الموضوعي المستقل عن الذات، والمفهوم على هذا

النحو. إن المثالية الفينومينولوجية لهسرل تردّ وجود العالم المستقل عن الشعور إلى ظهوره المطابق للشعور. هذا الردّ لا يبرّره هسرل ابتداء بأي نوع من الحجج العامة المعروفة من خلال تاريخ الفلسفة المعاصرة. إنه يقدّم بالأحرى بشكل وصفي وضمن تحليلات جزئية مفصلة، الكيفية التي يتوصل بها الشعور الإنساني عند مختلف أنواع الموضوعية إلى الاعتراف بالمجال الوجودي المطابق باعتباره قائما في ذاته.

إنّ "ظهور" الموضوعات يتحقّق عند تأمله بصورة أكثر دقة على النحو التالي:

صحيح أن كل موضوع يأتي إلى وعيي بصفته شيئا مماثلا لنفسه، أي بصفته موضوعا، إلا أنه يهب نفسه إليّ ضمن تنوّع كفيات وجوده المعطى التي تتبدّل ذاتيا في كل مرة حسب الظرف. لو كان الشعور لا يتضمن سوى تعاقب أنماط الإعطاء الذاتية-الظرفية هذه فلن يظهر لنا أي عالم بموضوعات مأكثة على صورة متماثلة، وهي الموضوعات التي نكون مقتنعين في الموقف الطبيعي بكونها قائمة في ذاتها ببداهة يقينية. إن كون الموضوعات قائمة في ذاتها يعني أنها شيء أكثر من المعطى في خصوصية ذاتية - نسبية ظرفية [...]. إن الموضوع الخارجي يصادفني بصفته شيئا قائما بمعزل عن تنوع أنماط الإعطاء المطابقة، وبالتالي باعتباره مفارقا لها. غير أن إدراك الموضوعات بصفته مفارقة يجب أن يقوم على أساس معيّن، ذلك أنه لا يمكن تحفيزه سوى بواسطة الظهور الذاتي-الظرفي.

إنّ المهمة العامة للبحث التأسيسي تُحدّد بواسطة تحليل هذا التحفيز في مختلف أنواع الموضوعية.

يكون اهتمام الإنسان في الموقف الطبيعي موجّها نحو الموضوعات، بحيث تبقى أنماط الإعطاء التي بواسطتها فقط يمكن للموضوعات أن تظهر للشعور، بعيدة عن الانتباه.

إنها لا تتحول في الغالب الأعم إلى موضوع، وإذا تحولت فإن ذلك لا يكون إلا بكيفية متقطّعة. لكي نتمكن من تخليصها من اختفائها الراجع إلى عدم اتخاذها موضوعا لإدراكنا يحتاج الأمر إلى التأمل الفينومينولوجي المميّز، الذي بواسطته سيبيّن بأن كل أنماط الإعطاء يمكن تقسيمها إلى مجموعتين كبيرتين:

في المجموعة الأولى يمكن لموضوع ما أن يعطى لي على نحو يجعلني أمتلك عندئذ الشعور بإحالة وارتباط بأنماط إعطاء أخرى ممكنة بالنسبة إليّ، يكون فيها هذا الموضوع حاضرا بالنسبة إليّ في قرب حدسيّ من الأشياء، وفي المجموعة الثانية يمكن للموضوع أن يظهر لي بالضبط ضمن هذا القرب من الأشياء الذي يعدّه هسرل بمثابة أصالة¹.

إنّ كلّ التمثلات البعيدة عن الأشياء، الغامضة، الحاجبة أو المشوّهة بأي شكل كان، اللامحدّدة، الأكثر أو الأقل تجريدا من المضمون تملك، نظرا إلى أن مضمون معيشها لا يشبع الشعور، الميل إلى أن

"تحقق" ذاتها في أنماط إعطاء أصلية خاصة بالموضوع المعني. في الوقت ذاته يكون قد تمّ رسم إمكانيات انطلاقا من المضمون المعيشي المعطى في الحاضر، بحيث يستطيع الشعور من خلال تحقيقها، أن يحقق ذاته. يكون الشعور في نظر هسرل قصديا، أي موجّها نحو أشياء، وإلى حالة التوجّه هذه ينتمي بطريقة غير قابلة للانفصال القصد إلى التحقيق، ذلك أنه لا يمكن سوى للظواهر الشعورية المحقّقة بشكل أصلي أن تمدّ الشعور في الأصل بموضوعات مع مضمون محدّد من الأشياء؛ أما إذا انعدمت إمكانية التحقيق فلا يمكن أن يكون هنالك على العموم أي شعور بالموضوعات. لهذا يجب أن تبنى التحليلات المؤدية إلى التأسيس على أنماط الإعطاء الأصلية التي تحفّز الشعور على تمكين نفسه من مقابلة الموضوعات. إنّ الفينومينولوجيا تصف لنا، مثلما يفعل الشعور الذي يحيا بطريقة أصلية، عملية بناء الموضوعات أمام الشعور، وهي الموضوعات التي تظهر له كشيء موجود في ذاته. يسمّى هسرل عملية البناء الخاصة بالشعور والمبينة بواسطة التحليل- مستعينا بمفهوم مقتبس من الكانطية الجديدة- "التأسيس".

إن التحليل التأسيسي يكشف عن الكيفية التي بواسطتها يحفّز تحقق أنماط الإعطاء الأصلية الشعور إلى رفع الخصوصية الظرفية لأنماط الإعطاء هذه إلى أنواع معيّنة من الموضوعية ومن ثمة إلى بلوغ القناعة بالوجود أو ("التصديق بالعالم"). لهذا فمما يصف به هسرل فينومينولوجيته هو كونها فلسفة ترنسندنتالية، نظرا إلى أنها تقوم بتفسير هذا التعالي، بصفاتها نظرية تحليلية تأسيسية.

إ التحليلات التأسيسية ترتبط في كل مرة بمجال محدّد من الموضوعات، وتسعى إلى تبيان كيف يتحقق وجود موضوعات تنتمي إلى نوع أو ضرب معيّن من الوجود في أفعال شعورية مطابقة. إن ما يؤلّف السلك الناقل بالنسبة إلى التحليلات هو البنى الماهوية العامة لمثل هذه المجالات الموضوعاتية أو موضوعات الإدراك كالأعداد مثلا، الدلالات اللغوية، معايير الحق، القيم الأخلاقية إلخ.

هذا، ويمكن التعرف على البنى الماهوية بواسطة منهج الرد الماهوي (أي الرد المرتبط بالأيدوس أو الماهية) الذي بواسطته نغض الطرف عن الوقائع لكي نوجّه انتباهنا إلى تحديدها العامة. وحتى لا يبقى هسرل متوقفا في إطار مجموعة غير منسّقة من تحليلات جزئية، فقد قسّم في الجزء الثاني من كتابه "أفكار إلى فينومينولوجيا خالصة وفلسفة فينومينولوجية"² (الموسوم بعد ذلك بـ"أفكار 2") لأول مرة الموجود عموما إلى ثلاث مجالات شاملة: الطبيعة المادية التي تضم الأشياء في المكان، الطبيعة الحيوانية (المنعشة بالروح أو الحية) و العالم العقلي - الشخصي. ويرى أن التحديدات الأساسية الخاصة بوجود كل مجال من هذه المجالات تتطوّر إلى نظريات يتحدّد بواسطتها وجود أنواع الموضوعات الخاصة بهذه المجالات. هذه "الأنطولوجيات المحلية" تتضمن في الوقت ذاته الشروط القبلية التي بواسطتها يمكن وضع حدود بين ميادين العلوم الجزئية.

بهذا يقع على عاتق البحث التأسيسي جملة من الواجبات التي يعود ترتيبها إلى الفكرة المتمثلة في كون كل أنواع الظواهر النفسية القصدية ترجع إلى بعضها البعض من خلال ارتباطها بالأصالة. فإذا كان الشعور غير قريب من الأشياء فإنه يحيل مسبقا إلى أصالة مستقبلية أو ممكنة، وإذا كان قريبا من الأشياء ومحققا لديمومتها فإنه يحيا أيضا من خلال أصالة معيشة سابقا. إنه يحيل من جديد انطلاقا من مضمونه الشئني، إلى ظواهر قصدية أخرى، ما كان ليكون هو نفسه ممكنا من دونها. على هذا النحو تكون كل ظاهرة نفسية "مؤسّسة" في حالات أخرى.

لقد صارت فكرة التأسيس هذه حاسمة جدا بالنسبة إلى الترتيب المنهجي للتحليلات التأسيسية الهسرلية، بل إنها اكتسبت أيضا أهمية منهجية جوهرية في الحركة الفينومينولوجية برمّتها. بالإضافة إلى هذا، فقد قادت هسرل إلى التسليم بأن إدراك الأشياء في المكان صار بمثابة مثال أصلي وأساس لحياة قصدية، نظرا إلى أنه مفترَض في كلّ الأنواع الأخرى من الظواهر النفسية. فكما أنني أتصرف دائما بالفعل بإحساسي أو بإرادتي، أو عمليا بنشاط تجاه شيء يصادفني، فإنني أفترض دائما وجوده. إن استعمال بضاعة استهلاكية على سبيل المثال أو محبة شخص آخر لا يكونان ممكنين من دون التجربة التي تبيّن لي أن ما يظهر لي مفيدا أو محبوبا موجود على العموم. غير أن هذا اليقين المتعلق بالوجود يحصل لي ابتداء من خلال الإدراك الحسي. بهذا يوجد بين الإدراك الحسي وبقية الظواهر النفسية القصدية "علاقة تأسيس" من جانب واحد، حيث إن الحالات المعيشة القصدية المتبقية لا تكون ممكنة دون إدراك، لكن العكس صحيح تماما. بهذا يصبح في الوقت ذاته المجال الوجودي الذي تناوله كتاب *الأفكار* الذي تكون موضوعاته معطاة في إدراك حسيّ، بعبارة أخرى تصبح الطبيعة المادية إذن بمثابة المجال الموضوعي التأسيسي.

بهذا يؤدي التفكير في شروط الأساس إلى تصور العالم المعيش قصديا، باعتباره مبنيا بمعنى من المعاني في شكل طبقات. ولقد طور هذه الفكرة التطبيقية إلى النهاية بعد ذلك نيكولاوي هارتمان³، لكن بطريقة مستقلة عن الفينومينولوجيا.

يؤلف بالنسبة إلى هسرل كلّ من الإدراك بصفته تقريرا للوجود وكذا الموضوعات المعطاة فيه، الطبقة الرئيسية في بناء التجربة المتعلقة بالعالم. لقد تمّ فيما بعد معارضة هذه النظرية في جملتها بطريقة حاسمة من قبل كل من هيدجر في كتابه *الوجود والزمن* بواسطة عرضه للبراكسيس الإنساني اليومي، أين يكون "الموجود الحاضر" بخلاف "الموجود المتاح" إعطاء ثانويا، وشيلر أيضا من خلال تحليلاته لعلاقات التعاطف والمحبة.

صحيح أن الإدراك بالنسبة إلى هسرل هو الحالة النفسية الأساسية في [عملية] تأسيس العالم الواقعي، إلا أن هذا لا يعني أنه لا يمكن أن يكون هو الآخر مبنيا على وقائع نفسية من مستوى أعمق. من الممكن

للشعور أن يؤسس حتى في هذه الوقائع النفسية الأكثر عمقا موضوعية ما، حتى وإن لم يتمكن بعد من تأسيس الأشياء المادية في المكان أو في المجالات الوجودية ذات المستوى الأعلى، مثل العالم الحي والشخصي.

نص مقتبس من كتاب:

Klaus Held, Edmund Husserl Phänomenologie der Lebenswelt
Ausgewählte Texte II (Reclam 2002 S. 5-13)

¹ Originarität

² هو الكتاب الذي ألفه سنة 1913 لكنه لم ينشر إلا بعد وفاته

³ Nicolai Hartmann